الفصل الرابع

مقاييس النقد عنده

لم يكن التجويد الفني هو الأساس الوحيد الذي اعتمده الصفدي في تقديم النص والحكم له أو عليه ، بل لقد تعددت مقاييسه ، حسبما رآه وأملته عليه قيمه وذوقه ، فلم يسيطر على الصفدي ميله إلى الأدب فحسب ، حتى يجعله كالقاضي الجرجاني ، إذ ينفي كل عامل يمكن أن يدخل مزاحماً للميزان الفني في الحكم على النصوص أو تذوقها .

لكن الصفدي لم يصل إلى هذا التجرد الفني عند الجرجاني ، بل سيظل يحيا بين أهل عصره ، تزاحمه الى النصوص قيم هذا العصر ومثله وتقاليده .

وهذه الأسس المعتمدة لديه حسب أهميتها في نقده هي :

الأساس التأثري :

إن أول ما يهتم به الصفدى في النص ؛ هو أثره في نفس المتلقي ، وإقامة الصياغة إنما هي لتحقيق هذا التأثير عنده .

فهو يؤاخذ ابن الأثير بما ذكره في ذم الدنيا وما أورده من العبارات المتداولة فيها ، حتى اتهمه الصفدي بالركة والعامية ثم قال : « والناس يذكرون

مثل هذا ، ولكن يدرجونه في عبارة تكون مفحّلة ، لما وقع في النفس[1] » .

كما يستنطق النفس في نقده عبارة ابن الأثير ، في وصف كلام بالفصاحة : « إنه يستميل سمع الطروب ، ويستخف وقار القلوب — ليقول — : ولا يقال طروب إلا لمن يميل لأدنى لذة ، ويتحرك لأقل نغمة ، ولهذا قيل : المستعد للشيء يكفيه أدنى سبب ، وإنما المدح أن يقال : يستميل من لا يرتاح للطرب . . »[2] .

وكم يلح على اختيار الألفاظ التي تضع المرء في الجو النفسي الذي يتطلبه المقام ، ليترك في النفس الأثر العميق المنشود « فذكر النار والقيامة أمر مهول ، ويحتاج الى ألفاظ مفخمة ، تهول السمع ، وتسيل الدمع ، وتقشعر لها الجلود ، وتنفطر لها الكبود ، . . . كما أن أوصاف الجنة لها ألفاظ تخصها ، عذبة سهلة لذيذة الى السمع . . . ألا ترى أن المديح له ألفاظ تخصه ، والهجاء له ألفاظ تخصه فيذكر الرأس والفرق في المديح ، والدماغ والقذال في الهجاء[3] » وذلك لتحمل شعور القائل وتعبر عما في نفسه من جهة ، ولتنقل الى المخاطب ما فيها من قيم شعورية عالية فتُحدث في نفسه أبلغ الأثر من جهة أخرى .

كما يؤكد الصفدي على إحداث هذا الأثر في نفس السامع ، من خلال الألفاظ المؤدية ، في إيراده وصف أبي زبيد الطائي للأسد في مجلس عثمان ، ويختم وصفه بهذه الأبيات :

عَبوسٌ شَموسٌ مُطْرَخِمٌّ مُكابِرٌ ... جَريءٌ على الأعداءِ لِلقِرنِ قاهِرُ
بَراثِنُهُ شُثْنٌ وعَيْناهُ في الدُّجى ... كَجَمْرِ غَضًا في وَجْهِهِ الشَّرُّ طائِرُ
يُدِلُّ بأَنْيابٍ حِدادٍ كأنها ... إذا قَلَّصَ الأَشداقَ عنها خَناجِرُ

---

(١) نصرة الثائر ١١٧
(٢) « « ١٢٤
(٣) « « ١٣٩

« قال الراوي : فحبق أحد الحاضرين ، فقال له عثمان رضي الله عنه : مَهْ رضيَ الله فاك ، فلقد رغّبت المسلمين » .

ويعقب الصفدي بقوله : « فانظر الى هـذه الألفاظ ومواقعها في النفس ، كأنها أُسودٌ تلتهم ، أو أساود تلتقم ، هل يحسن شيء منها أن يكون في وصف ظبي أو طاووس . . ! [1]

كما يعترض الصفدي بعنف على أسلوب الرسالة التي أملاها ابن الأثير لترسل الى المحبوب الهاجر فيقول في ذلك : « إنني ما سمعت ولا رأيت ، ولا أسمع ولا أرى بمن راسل محبوبه بمثل هذه الأشياء ، وتهدده بأن العشق يزول بالصدود والزيادة في الحد نقص في المحدود ! هذه العبارة والتهديد تصلح أن تكون في حق عدو خرج عن الصداقـــة الى العداوة ، أو مسؤول أكثر الظلم والفســاد في البلاد والعباد .

« أمـا وقف على شعر المتيمين من العرب الذين خاطبوا أحبابهم ، وتوسلوا في طلب الوصال ، وتلطفوا في طلب الرضى والمساعدة على الهوى . . . فإنه إن كانت الرقة واللطافة والاستكانة خُلقت لشيء فما أدري أحداً أَوْلى من العشاق في هذه المقامات »[2] .

هكذا يطلب الصفدي أن يكون الكلام مناسباً ، بحيث يُحدث في نفس المتلقي الأثر المنشود ، فيكون النص الأدبي قد أدّى الغاية منه في نقل شعور القائل الى الآخرين .

---

(١) نصرة الثائر ١٣٩

(٢) » » ٢٤٥

الأساس الديني :

وكذا فإن الصفدي يعتمد موافقة الدين في نقده للنصوص. وقد رأينا كيف بدأ مسائل كتابه مع ابن الأثير بمؤاخذته ، لأنه لم يبدأ كلامه بحمد الله ، بل بدأه بقوله « نسأل الله أن يبلغ بنا من الحمـــد ما هو أهله » وذكّره بالحديث الشريف « كل كلام لا يُبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم » ثم قال فيه « فلو قال الحمد لله لكان أفضل »(١).

وكذلك أورد لابن الأثير قوله يمدح خطاباً : « ولما وقفت عليه قلت : سبحان من أعطى سيدنا فلم يبخل ، وخصه بنبوة البيان إلا أنه لم يرسل ، ولولا أن الوحي قد سُد بابه لقيل هذا كتاب منزل » .

فرد الصفدي قائلاً : « في هذا من إساءة الأدب ما فيه ، وللإنسان عن مثل هذا المدح مندوحة تخرجه من هذه المضائق . وقوله : وخصه بنبوة البيان إلا أنه لم يرسل ، مأخوذ من قول أبي العلاء المعري :

لولا انْقِطاعُ الوَحْيِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ... قُلْنا مُحَمَّدُ مِنْ أَبِيــهِ بَديلُ
هو مِثْلُه في الْفَضْلِ إلاَّ أَنَّهُ ... لَمْ يأْتِــهِ بِرِسالَةٍ جِبْرِيلُ

وقد كُفِّرَ قائل مثل هذا »(٢).

ويقول الصفدي تعليقاً على قول ابن الأثير في حديثه عن سورة الفاتحة : « فانظر الى هذا الموضع ، وتناسُب هذه المعاني الشريفة التي الأقدام تكاد تطأها ؛ والأفهام مع قربها صافحة عنها . . . أقول : أكذا يقال بعد ذكر أسرار القرآن

---

(١) نصرة الثائر ٥٥
(٢) « « ٢٨٠

الكريم . وإيضاح غامضه ! وما أفاد قوله (المعاني الشريفة) وتأديه ، بقوله : (تكاد الأقدام تطأها) ؟

وكان الأحسن أن لو قال : فانظر الى هذه المعاني الشريفة ، كيف غدت شموسها ضاحية ، والبصائر عن إدراك ضيائها لاهية . أو أن يقول : تكاد تيجانها تقع على المفارق ، والأذهان عاطلة الجيد من درها المتناسق »[1].

ويطالعنا الأساس الثالث مما يعتمده الصفدي في نقده وهو :

الأساس الاجتماعي :

حيث يراعي الصفدي مقام المخاطَبين ؛ ممن يحظى بمنزلة تؤهله لاحترام الناس ، ويطالب الأديب بأن يكون على الكياسة واللباقة عند حديثه عن أمثال هؤلاء ، كما أنه يفضّل أن تكون آراؤه منسجمة مع آراء غيره من الأدباء ما أمكن ، فإن حصل ذلك فسرعان ما يستشهد بقولهم تدعيماً لما جاء به « قال ابن الأثير : وقد استعملت أنا هذا في تقليدٍ لبعض الملوك من ديوان الخلافة فقلت : (وإذا استعنت على عملك بأحد فاضرب عليه بالأرصاد ، ولا ترض بما عرفتـــه من مبدأ حاله فإن الأحوال تتنقل تنقل الأجساد ، وإياك أن تخدع بصلاح الظاهر كما خـدع عمر ابن الخطاب بالربيع ابن زياد) .

فجاء رد الصفدي : (قوله كما خدع عمر ؛ في هذا القول إساءة أدب على عمر رضي الله عنه من نسبته الى أنه خُدع ، والأدب في مثل هذا أحسن ، ودفـــع الانخداع عنه أليق . ألا ترى الى قوله تعالى حاكياً عن يوسف عليه السلام (من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي) فنسب ما وقـع بينهم الى الشيطان تأدباً مع إخوته عليهم السلام . وما أحسن قول الشاعر :

---

(١) نصرة الثائر ١٢٧

حُججي عليكَ إذا خَلَوْتُ كثيرةٌ   وإذا حَضَرْتَ فإنّني مَخْصُـــومُ
لا أَستطيعُ أَقولُ أَنت ظَلَمْتَني   اللهُ يَعْـــلَمُ أَنّني مَظْلومُ

« فانظر الى أدب هذا الشاعر وتلطفه مع محبوبه وإجلاله له . وكان الأحسن أن لو قال : وإذا استعنت على عملك بأحد فلا تثق منه بلمع السراب ، واكشف بيد أرصادك عن وجه سيرته حجاب النقاب ، وتيقظ لأموره فلا ترض بالظاهر العامر وتنسى الباطن الخراب ، وتخيل من مكره ما تحيل به الربيع ابن زياد على عمر ابن الخطاب .

فإن نسبة الحيلة الى الربيع أحسن في الأدب من نسبة الخدع الى عمر رضي الله عنه [1] » .

ومن ذلك نقده لعبارة ابن الأثير في وصف كلام بالفصاحة « وهو فوق الكلام المجيد ، ودون القرآن المجيد » بقوله : ما رأينا من مدح كلاماً ولا قرظه بمثل هذا ، وفي أفانين المدح وضروب الثناء عن ذلك مندوحة . ألا ترى أن رسول الله ﷺ سيد ولد آدم ، ومع هذا فما سمعت أحداً مدح آخر فقال له : أنت دون النبي عليه السلام . لأن لفظة دون وأقل وتحت ما تستعمل في جانب الممدوح [2] » .

أما ميله لتأييد الأدباء والاستناد إلى ما يقولون ؛ فقد كان نامياً في كتابه (نصرة الثائر) أما في كتابه (الغيث المسجم) فيبدو أن ملكته قد اكتملت ، وآراءه قد أصبحت محل اعتزازه ، وذوقه مقدم عنده ؛ ولو كان في ذلك مخالفة ما تعارف عليه الأدباء وجمهور العلماء [3] .

---

(١) نصرة الثائر ٧٠
(٢) « « ١٢٣
(٣) انظر ص ٢٢٣ من هذه الدراسة

ومن أمثال ذاك في « نصرته » قوله في معرض حديثه عن أبي نواس وأبياته في الخمر وتصاوير الكأس « أقول كفى بهذا الرجل ـ رحمه الله ـ أن يقول مثل هذا القول ، وما أعرف كتاباً من أمهات كتب الأدب مثل الروضة للمبرد ، والذخيرة لابن بسام ، وزهر الآداب للحصري ؛ إلا وقد تضمن ذكر هذه الأبيات والثناء عليها .

« وحسبك بكلام يثني عليه أبو عثمان عَمْرٌ الجاحظ وهو أحذق أئمة الأدب ، وأعرفهم بما يقول ، وأبصرهم بمدارك العقول ، وقوله في مثل هذا حجة ، وما قرره في الأبيات هو المحجة . وما أحسن قول القاضي الفاضل (وأما الجاحظ رحمه الله ، فما منا معاشر الكتاب إلا من دخل من كتبه الحاره ، وشن الغاره ، وخرج وعلى الكتف منها كاره) .

« وقد أولع الفاضل ـ رحمه الله ـ بذكره في ترسله ، وذكر تصانيفه ، ولو لم يكن له من كتب الأدب إلا كتاب البيان والتبيين لكفاه ذلك فخراً [1] » .

بهذه السلسلة من الدعائم يعضد الصفدي رأيه ويشد أزره .

كما علق على بيت المتنبي :

أَزورُهُمْ وسَوادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لي وأَنْثَني وبَياضُ الصُّبْحِ يُغْري بي

« وما رأيت من عاب هذا البيت ولا هذه القافية ، وإنما هو معدود في المحاسن التي انفرد بها أبو الطيب [2] » .

ويدفع عن المعري اتهام ابن الأثير بالتعصب للمتنبي بقوله : « إن المعري معذور في تفضيل المتنبي على غـــيره ، وليس هو ببدع في ترجيحه على غيره من الشعراء ، فأكثر الناس على هذا المذهب [3] » .

---

(١) نصرة الثائر ١٩٤

(٢) « « ١٣٦

(٣) « « ١٧١

ولقد كان من الممكن إغفال هذا الجانب عند الصفدي بعد أن أقلع عنه في أواخر كتبه وحياته وغدا ذوقه وآراؤه هما مباءته في نقده ، لولا أن صورة هذا الجانب الين قائمة في كتابه نصرة الثائر ، وهو هنا محط اهتمامنا وهدف أضوائنا .

وفي تلمسنا لمقاييسه وما اعتمده من أسس في نقده ، نرى أن الأساس الثقافي، كان له دور بارز في موقفه من النصوص وأحكامه فيها .

الأساس الثقافي

فإذا لاحظ الصفدي في النص خطأ يمس حقائق المعرفة أنكر ذلك ، ولم يعد يلتفت الى القيم الفنية فيه .

قال ابن الأثير « ومن ذلك ما كتبته في جواب كتاب يتضمن إباق غلام فقلت : (وأما الإشارة الكريمة في أمر الغلام الآبق عن الخدمة ، فقد يفر المهر من عليقه ، ويطير الفراش الى حريقه) .

فرد الصفدي : (أما الفراش فما يحسن أن يقال فيه : قد يطير الى حريقه ، فإن (قد) هنا للتقليل مثل : قد يكبو الجواد ، وكما قال : قد يفر المهر من عليقه . أما الفراش فما رأى النار إلا ألقى نفسه فيها ، هذا هو الغالب ولا كذلك المهر .

« قال أبو العلاء المعري في وصف أسد :

بَـدَا فَدَعا الفَراشَ بِناظِرَيْهِ   كَمَا تدعوه موُقِدَتا ظَلامِ[1]

كما ينكر الخطأ النحوي في « قول شمس الدين محمد ابن التلمساني :

يا ساكناً قَلْبي المُعَنَّى   وليسَ فيه سِواهُ ثانِ

(١) نصرة الثائر ١٤١

لأيِّ مَعْنىً كَسَرْتَ قَلْبي وما ٱلْتَقَى فيه ساكنانِ

فيقول « هذا المعنى رأيت جماعة من أهل العصر قد لهجوا به واستحسنوه ؛ وهو فاسد . وذلك أن القلب وعاء للساكنين والظرف غير المظروف ، والقاعدة أن الساكنين إذا التقيا كُسر الثاني منها ، وإذا كسر قلبه فليس بعجيب لأنه غير الساكنين ، وليس واحداً منها ، فما لإنكاره عليه معنى . فتأمل ذلك يظهر فساده[1] » .

الأساس الفني :

ونتوجه أخيراً الى أوسع أسس النقد عنده ، وهو الأساس الفني الذي يتلمس فيه سر الجمال والإثارة والتأثير في النـــص ، بالنظر في عناصره الأولى ومكوناته الأساسية ، بعيداً عن الاعتبارات الأخرى .

ويبدو أن سمو النفس الشعري في النص هو الذي يبعد الناقد الصفدي عن أن يلتفت الى مقياس ثقافي أو اجتماعي أو ما شابه ذلك ، فيجذبه الى ما فيه من فكر مثير ، أو انفعال غامر ، أو أسلوب قوي رائع ، أو صنعة موفقة . فها هو ذا ينقل إلينا نصاً من إنتاج عصره في وصف معركة .

يقول بدر الدين أبو المحاسن يوسف المهندار سنة ٦٨٩ :

لو عايَنَتْ عَيْناكَ يَوْمَ نِزالِنا والخَيْلُ تَضْبَحُ في ٱلْعَجاجِ الأَكْدَرِ
وَسَنا الأَسِنَّةِ والضِّياءُ مِنَ الظُّبا كَشَفَا لأَعْيُنِنا قَتـــامَ العِثْيَرِ
وقَدِ اطْلَخَمَّ الأَمْرُ واحْتَدَمَ الوَغَى ووَهَى الجَبانُ وساءَ ظَنُّ المُجْتَري

---

(١) نصرة الثائر ٢٢٣

لَرَأَيْتَ سَدّاً من حَديدٍ مائِراً فَوْقَ ٱلْفُراتِ وفَوْقَهُ ناراً تُري
حتى سَبَقْنا أَسْهُماً طاشت لنا منهم إلينا بالخُيولِ الضُّمَّرِ
طَفَرَتْ وقد مَنَعَ الفوارِسُ مَدَّها تَجْري ولولا خَيْلُنا لَم تَطْفِرِ
لم يَفْتَحوا للرَّمْي منهم أَعْيُناً حتى كُحِلْنَ بِكُلِّ لَدْنٍ أَسْمَرِ
ما كان أَجْرَى خَيْلَنا في إِثْرِهِمْ لَوْ أَنَّها بِرؤوسِهِمْ لم تَعْثُرِ
فَتَسابَقوا هَرَباً ولكنْ رَدَّهُمْ دونَ الهَزيمَةِ رُمْحُ كُلِّ غَضَنْفَرِ
كَمْ قَدْ فَلَقْنا صَخْرَةً مِن صَرْخَةٍ وَلَكَمْ مَلأْنا مَحْجَراً من مِحْجَرِ

قال الصفدي : « فانظر الى هذه الألفاظ المفخمة التي أتى بها هذا الشاعر البليغ في وصف هذا المقام المهول ، وأظن هذه الأبيات نظمها مهمندار العرب في واقعة الملك الظاهر رحمه الله ، لما ألقى روحه في الفرات ، ورمى الجيش نفوسهم خلفه [1] » .

فقد أخذ الصفدي هنا بقدرة هذه الألفاظ على وضعنا في جو المعركة ، بمعانيها وإيحاآتها وأصداء حروفها .

« وما ألطف قول ابن المعتز :

وابَلائي في حَضْرٍ وَمَغيبٍ مِنْ حَبيبٍ مني بَعيدٌ قَريبِ
لم تَرِدْ ماءَ وَجْهِهِ ٱلْعَيْنُ إلاّ شَرِقَتْ قَبْلَ رِيِّها بِرَقيبِ

---

(١) العبث المسجم ٢ / ٣٩ - ٤٠

« قلت ما أحـــلى استعارته الشرق والورد والري لماء الوجه ، فهكذا يكون الشعر [1] » .

ولا بأس عند الصفدي - وهو ابن عصره - من توفير وجوه البديع إذا كان يفضي الى معنى ، أو يزيد المعنى عمقاً وبياناً .

« حكى الشيخ العلامة غرس الدين أبو بكر الإربلي صاحب كتاب (الألفية في الألغاز المخفية) إن الصاحب شرف الدين مستوفي إربل أنشده لغيره :

على رَأْسِ عَبْدٍ تاجُ عِزٍّ يَزِينُهُ وفي رِجْلِ حُرٍّ قَيْدُ ذُلٍّ يَشِينُهُ

فقال غرس الدين المذكور بديهاً :

تَسُرُّ لئيماً مَكْرُماتٌ تُعِزُّهُ وتُبْكي كَرِيماً حادِثاتٌ تُهِينُهُ

« وقلت هذا أحسن في البديهة ولكنه ناقص عن الأول من وجهين :

الأول : أن الأول قابل ستة بستة لا شك فيها ، وهو قابل أربعة بأربعة .

الثاني : أن المقابلة في قوله تحتاج الى تأويل ، لأن السرور يقابله الحزن ، فكان ينبغي أن يقول : وتحزن ... ولكن لما كان الغالب أن البكاء إنما يكون من الحزن أطلق البكاء هنا على الحزن . ولأن المكرمات لا تقابل الحادثات إلا بتأويل أن المكرمات تكون في الخير والحادثات تكون في الشر .

« وأكثر ما عدّ الناس في المقابلة بيت أبي الطيب [2] لأنه قابل فيه بين ستة كما ترى ، فهذا أبلغ ما يمكن أن ينظم في هذا المعنى والله أعلم [3] » .

---

(١) الغيث ١ / ٢٣٨

(٢) البيت : أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثني وبياض الصبح يغري بي

(٣) الغيث ١ / ١٧٤

وكم يطرب للخيال الصائب ؛ إذ يلفت الى أبرز جوانب الصورة ليدع لخيال المتذوق مجال الانطلاق واستكمال خطوط الصورة ، فتكون المتعة أكمل ، والنشوة أطول ، وذلك في قول ابن الساعاتي :

وَلَكَم رَمَيْتُ حشا ٱلفَلاةِ بأسْهُمٍ   بَعَثَتْ حنايا أَيْنُقٍ ورَكائِبِ
مِن كُلِّ مُنْتَصِبٍ وآخرَ ساجِدٍ   وَسْنَى كما اخْتَلَفَتْ أَنامِلُ حاسِبِ

« قلت : هذا التشبيه في غاية الحسن لأن أنامل الحاسب ، واحدة ترتفع وأخرى تنخفض . وهكذا الركب في وقت السرى إذا غلب عليهم النعاس . ترى هذا قد هوى بعدما ارتفع ، وهذا قد انتصب بعدما هوى (١) » .

وهكذا نلم بمقاييس الصفدي في النقد ، وأوسعها مدى وأشملها لغالب ما عالج من نصوص هو مقياس الفن ، إذ يلتفت فيه الى توفر عناصر الشعر ومدى الإبداع فيها .

كما كان من هذه المقاييس : المقياس التأثري ، والاجتماعي ، ثم الثقافي ، مع ملاحظة أن النص البارع في ميدان الفن الشعري ، لا يسمح للناقد بالابتعاد عنه الى جوانب أخرى ، وبقدْر احتجاب عناصر هذا الفن يكون التفات الناقد صوب مقاييس النقد الدخيلة الأخرى ، التي لا تمت بصلة الى الشعر ونظمه .

★ ★ ★

---

(١) الغيث ١ / ١٨٨